الحسن بن محمد الوزان

901 - 956 هـ / 1495 - 1548 م

شخصية مغربية فذة مجهولة في الوسط المغربي

- 1 - عصره

التقلبات السياسية

أراد صاحب كتاب القرطاس أن يصف العصر الذي قام فيه بنو مرين ثائرين على الموحدين فقال:

« وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقص وتبين أى تبين، وصارت ملوكهم ليس لها حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبذ أكثر الناس الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة ، فاستوى الدنيء والشريف، وأكل القوى الضعيف، وكل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شرا ابتدعه، ليس لهم سلطان يكفهم ولا أمير عن غيهم يردهم ويصدهم، وكانت قبائل فازاز من زناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمداشر مع الأحيان والأوقات؛ فلما رأى الأمير أبو سعيد بن عبد الحق أن ملوك الموحدين قد ضعفت دولتهم، وضيعوا حرمتهم، وأهملوا رعيتهم، واعتكفوا في قصورهم، واحتجبوا عن مهمات أمورهم، واشتغلوا بالخمور والغواني، وتلذذوا باللهو وسماع الأغاني، ورأى أن ضلالهم قد تبين، وغزوهم على من له قدرة قد تعين، وخلعهم من أوجب الواجب لعجزهم عن القيام بالواجب، جمع أشياخ

مرين، وندبهم إلى القيام بأمر الدين، والنظر في مصالح المسلمين، فوجدهم إلى ذلك مسرعين، فسار بجيوشه الوافرة، وجنوده المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله وجباله، وأوديته ومناهله، فمن سارع إلى بيعته، ودخل في طاعته، أمنه ووضع عليه الخراج، وتركه آمنا منيعا ومن حاد ونابذة أباده نهبا وقتلا وغادره صريعا » .

هكذا صور ابن زرع أواخر دولة الموحدين ورسالة بني مرين إلى المجتمع المغربي، وهو تصوير صحيح لا مبالغة فيه ولا إجحاف، ولو عاش ابن زرع في أوائل الدولة السعدية، وأراد أن يصف أواخر دولة بني مرين، لما استطاع أن يصفها بما وصف به عصر أواخر دولة الموحدين ؛ فبعد أن تقلد بنو مرين الملك واستووا على العرش المغربي قرنين ونصف، يحكمون البلاد، ويسيطرون على مرافقها الحيوية ولا يتأخرون لحظة عن عظمتها وشغف مؤسسيها بالعلم والمعرفة، ونشطوا الأدب ومختلف الفنون، بعد ذلك كله حل عصر الاضطراب السياسي، وإذا حل عصر الاضطراب السياسي في أمة فسرعان ما يختل سيرها إلى الأمام، ولا تقوى أن تواصل تطورها إلا بدولة أو حكومة فتية لها من الاستعدادات ما يؤهلها أن تسيطر على الموقف بحزم ودراية.

وبنظرة وجيزة على حوادث العصر الذي عاشت فيه هذه الشخصية المتحدث عنها في هذه السطور ندرك أى اضطراب كانت تعانيه البلاد المغربية وأى فوضى كانت تتخبط فيها على إثر ضعف الإدارة المرينية ومغادرة البقية الباقية من المسلمين لأرض الأندلس بعد أن اكتسحها الإسبان واستضعف قوة المسلمين وسولت له نفسه أن يطمح في الضفة المقابلة لها وحرك ذلك الطمع نفسه الدولة البرتغالية نظرا لما وصلها من حوادث هذه البلاد وثرواتها وعدم وجود أية شخصية تدير شؤونها بقدرة، فاستولت في سنة 894 على آنفا وأصيلا وفي 907 استولت على البريجة وبنوا مدينة الجديدة، ثم واصلوا استيلاءهم على سواحل سوس وبنوا حصن فونتي قرب أكادير ولم يترددوا أن يمكتوا ثغر آسفي ويزحفوا على الاثر إلى أزمور والمعمورة، ثم خلال هذه الأثناء تنشب الحرب بين بقية

الوطاسيين والمرينيين وبين أبي العباس أحمد السعدي.

هكذا كانت حوادث هذا العصر، فالثورات في الداخل تتوالى، والأجانب يغيرون على الدولة، ويقصون أطرافها، وفي هذا الوقت العصيب تشتعل نار الحرب الأهلية بين دولة شاخت هى دولة الوطاسيين المرينيين ودولة تتمخض الحوادث على ظهورها وتمركزها هى دولة السعديين التي ستاخذ بعد ذلك بيد الأمة المغربية، وتعيد الأمور إلى نصابها، وتطرد الأجانب عن ثغورها، وترد إلى الدولة المغربية هيأتها وروحها.

الحياة الفكرية

لعل آخر ما يتأثر بالتقلبات السياسية والثورات الداخلية هى الحياة الفكرية، فجذورها تتكون وترتكز في عصر الطمانينة وعصر الحضارة ، لكن ثمرتها الناضجة قد تتأخر إلى عصر الاضطراب السياسي، وذلك نظرا لشغف الباحثين في فروع العلم وحرصهم على الثقافة لا تأبه الحياة الفكرية بالصدمات الأولى السياسية، بل تحول بينها لذة المعرفة التي يتذوقها التلاميذ ورغبة البحث التي يحرص عليها الأساتذة ولو إلى أجل.

والشخصية التي نشاء أن نتحدث عنها قليلا عاشت في عصر مملوء بالاضطراب السياسي، ومع ذلك استطاعت أن تشق لنفسها طريق العلم وأن تكون عقلية ممتازة فذة تلقى كل إعجاب في الغرب، فلقد عاش في أواخر دولة بني مرين وثقف في مدارسها وكان ثمرة من ثمرات عصرها الذي سادت فيه السكينة، وتمت به أسباب الحضارة وإن كنا لا نعرفه إلا من طريق أوربي وكتابات أوربية فإنه يمثل عصرا ذهبيا عظيما من عصورنا الخالية خير تمثيل، ولا غرو فالعصر المريني من أزهى عصور دول الإسلام تزعمت فيه فاس العلم الإنساني وحضارة العلم إذ ذاك، وكانت نقطة تلتقي فيها حضارة الشرق الماضية وحضارة الغرب، ومصدر الروح بدا سيرانها يدب في الغرب حيث تسيطر الكنيسة وتراقب كل

اتجاه من شأنه أن يزعزع قوتها ومركزها ونفوذها.

ففي العاصمة المرينية فاس وفي غيرها من المدن المغربية كانت المعاهد تقوم بدور مهم في تغذية العقول، وتواصل دراسات قيمة في سائر فروع المعرفة التي اتصل بها العقل الإنساني لغاية ذلك العهد؛ فمن تشريع وعلوم الهيآت إلى علوم طبيعية ورياضيات وجغرافية وغير ذلك؛ ولم تكن جامعة القرويين كما هى اليوم تود أن تحصر العلم في مسائل معينة، والأدب في صور جامدة ، بل كان المتخرج منها المحصل على إجازة أساتذتها يدرك أكثر ما يستطيع الإنسان أن يدركه في ذلك المعهد من صور التفكير وألوان المعقولات وضروب من الأدب الناضج.

ونظرة واحدة على قائمة المفكرين الذين ذكرهم صاحبنا الحسن في أحد مؤلفاته توضح لنا الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فقد ذكر أكثر من ستين مفكرا من أعلام المفكرين المسلمين، فمن الفلاسفة من أمثال ابن رشد والفارابي وابن سينا وابن طفيل والطبراني وابن خلدون وابن عمران وموسى بن مامون، ومن المتصوفة أمثال الغزالي والحسن البصري وأبي الحسن الساري والشاذلي وأبي حفص عمر ابن فريد ، ومن الأطباء أمثال عبد الله البيطار وابن زهر وإسحاق بن عمران والرازي، ومن الجغرافيين أمثال ابن عبد الله البكري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمراوي والمسعودي، ومن المؤرخين أمثال الشهرستاني وابن الجوزي وابن حسن المتلميذي وابن بشكوال.

ذكر هؤلاء الفطاحل وذكر غيرهم في كتاب احتفظت به المكتبة الأوربية، كتاب في جغرافية افريقيا والمغرب بصورة خاصة، ولست أدري كم ذكر من الشخصيات في مؤلفاته التي ضاعت في الفنون الأخرى والتي لم تحتفظ بها المكتبة العربية أو احتفظت بها ولا زالت ملقاة في إحدى الخزائن الخاصة إلى أن يشاء الله إبرازها وإبراز غيرها من المخطوطات المغربية فتلقى ضوءا جديدا على العصر المريني وغيره من العصور المغربية وما أينع فيها من ثقافة وازدهر من حضارة، فالحياة الفكرية لم تكن كحياتنا الفكرية

الحاضرة ذابلة قاتلة لكل نشاط وسعى، بل كانت تندفق علما وتفكيرا رغما عن الاضطرابات المتوالية والصدمات المتتابعة.

- 2 - حياته

لا نعرف شيئا عن حياة هذه الشخصية المغربية فإن الإبهام يحيط بها من جوانب عدة، ولا تخطو خطوة دون أن تتساءل عن نواح للرجل يجب أن نعرفها لنواصل سيرنا في تفهم ترجمة حياته وتعلل ما يتراءى لنا عنه من صور؛ فالرجل لم يكن من هؤلاء الذين يعيشون أعواما ثم يقبرون دون أن يدركوا من الحياة إلا صورها السطحية، فيمرون في الحياة مر السحاب، بل كان فردا يحتفظ بكل ما يشاهد وما يسمع، ويلاحظ الملاحظات الدقيقة، ولم يكد يكتمل نضوجه العلمي واستعداداته الفطرية حتى خطفته أيد عاتية فإذا به في عالم آخر لا يوافق هذا الوسط الذي تعلم فيه وتثقف تثقيفا صحيحا.

فكل ما نعرف عن حياته أنه ولد في غرناطة، والإسبان في الأندلس يهاجمون العرب ويكتسحون البلاد التي فتحها جيش طارق ونشر فيها لواء الإسلام، يهجمون البلاد هجوم الاستيلاء الأخير، وقد اضطربت أحوال المسلمين، وخيم عليهم اليأس والقنوط، فأصبحت في تلك البلاد ملتهم تحتضر، فلا يكاد صاحبنا يتعدى سن الطفولة حتى يتم أمر الله وتغادر آخر جماعة إسلامية البلاد الإسبانية، فتغادر عائلة صاحبنا الأندلس إلى المغرب، وتقصد توا عاصمة المرينيين حيث يقضي محمد الوزان حياته الدراسية فيتقن العربية وعلومها، ولا نكاد نعرف شيئا واضحا عن دراسته إلا إذا استنتجناها من خلال سطور مؤلفه التي يأتي ذكره، فنعرف أن الوزان لم يكن بذي التعليم السذج الذي ليس بينه وبين العامي إلا درجة واحدة من درجات الرقى، بل كان شخصا يجمع إلى دقة ملاحظاته واستعداداته الفطرية ثقافة واسعة شاملة لأشتات فروع العلم الذي تحدث إلينا عنه في

كتابه ومختلف صور الثقافات الإسلامية، وقد كانت فاس إذ ذاك في أوج عزها تتزعم العواصم المتمدينة حضارة وعلما، وجامع القرويين إذ ذاك على رأس المعاهد العلمية التي أسستها الدول المغربية ودولة بني مرين بصورة خاصة يقدم لطلبته غذاء فكريا يشد إليه الرحال، وإداراته لا تبخل على كل غريب بالمساعدة الأدبية والمادية؛ فالوسط الفاسي العلمي هو الذي كون هذه الشخصية ونمى استعداداتها وشغفها بالعلم والبحث.

ويحدثنا أنه تعاطى مهنة العدالة فأصبح عدلا يسجل الأحوال المدنية والتجارية مدة عامين، والظاهر أن هذه المهنة لم تكن مما يوافق مشرب صاحبنا، بل كان يتطلع إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة غير قضاء يومه في دكان ضيق يكتب على ركبته رسوما ومواثيق، بل أراد أن يجل في أرض الله الواسعة، ويدرس الحياة من طريق عملي، ويطبق النظريات على الملموسات فيعطي لمواهبه الفرصة كى تبرز وتغتنم من التجاريب والمصادمات، ففي خلال عشر سنوات جال بمختلف جهات المغرب ووصل إلى تمبكتو وزار مختلف نواحي افريقيا الشمالية وزار الحرمين واستنبول وجهات أخرى من آسيا، وكان يقضي خلال هذه الرحلات مهمات سياسية، ففي سنة 921 يكون بتادلة ويشاهد معركة معمورة بأسفل نهر سبو، ثم يرجع إلى فاس ويقصد الحرمين على طريق تلمسان والجزائر وتونس، وفي السنة التالية يقصد الاستانة وغيرها من الجهات الأسيوية ثم يتجول في مختلف جهات افريقيا الشمالية وطرابلس على العموم.

وفي سنة 926 هـ ياسره قرصان إيطاليا قرب نابلي ويأخذونه إلى البابا ليون العاشر، فيجد نفسه في وسط أوربي غريب عنه، فبدا دبيب الحياة الفكرية يسري في عروقه من جديد، له ماض زاهر وحضارة عريقة الأصل، وكان البابا ليون العاشر - والبابا إذ ذاك في أوربا الكل في الكل - رجلا فذا ممتازا في وسطه، يرغب في العلم وينشد ذويه، فلما أوتى له بالحسن فمن المتصور أنه طلب منه أن يتحدث إليه عن بلاده المغربية إذ استلفت نظره حديثه الفياض ودقة معلوماته وسعة نظره، والتاريخ يحدثنا أن البابا قربه إليه وعين

له راتبا عظيما وجعل منزلته رفيعة ومكانته محترمة، فلقد وجد البابا في رجلنا، دون بقية الأسارى التي كانت إيطاليا تموج بهم، رسولا من رسل المعرفة وتلميذا من تلامذة عصر ذهبي يزخر بالمعارف وتجتمع فيه ثقافات مختلفة.

تمكنت أسباب الصلة بين البابا والحسن المغربي وتأصلت المودة بينهما إلى حد بعيد، وتحدثنا بعض المصادر التي كتبت عنه أن البابا دعاه إلى المسيحية فتمسح فسماه باسم ليون، وبليون يعرف صاحبنا في الوسط الأوربي منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا، ولست أدري حقيقة تمسحه وهو الذي ترعرع في وسط إسلامي وتغذى من ثدي المعارف الإسلامية، أم أن ذلك استنتاج من بعض الذين كتبوا عنه لما علموا هذه الصلة والمودة اللتين تكونتا بين ليون البابا وبين ليون المغربي، فإنه لم يكن ليخطر في ذهنية المتدينين بأوربا أن شخصا يرضى عنه البابا وهو غير مسيحي، ويزعم مستشرق درس حياته ومؤلفاته أنه لما رجع إلى تونس رجع إلى دينه الإسلامي؛ إذن فمسيحيته - وإن صحت - لم تكن بصورة ظاهرة، ولست أتصور أن الحسن قد تمسح وإلا فلماذا يغادر روما إلى وسط إسلامي بعد موت البابا ليون العاشر فيقصد تونس وهناك يلقى ربه وتحتضنه تربة إسلامية، ثم إن مؤلفه الضخم الذي هو بين أيدينا وهو فيه يتحدث عن بلاد إسلامية من مختلف نواحيها لم يأت بكلمة أو جملة يشم منها بغضه أو نفوره فحسب من دين الإسلام والمسلمين إذ أصبح حقيقة يعتقد أنهم على ضلال. هذا كل ما نعرف عن حياة الرجل وليس ذلك بالترجمة التي تتيح لنا أن نحلل شخصيته تحليلا تاما ونستنتج منها ما يلزم أن نستنتج لنصور عبقريته وكفاءته العلمية تصويرا جليا لا غموض فيه، فالإبهام - كما قلت آنفا - يحيط بحياته، والمصادر العربية التي بين أيدينا لم تتحدث عنه ولو بترجمة بضعة أسطر، بل ولو بكلمة واحدة، ولكن مؤلفه العظيم - وصف افريقيا - يعطينا صورة عن سعة علمه وآفاق بحثه وقوة إدراكه ويوضح لنا سبب شهرة الرجل ومؤلفه في الأوساط العلمية الغربية وشغف الباحثين الأوربيين به وبسيرته.

- 3 - مؤلفاته

كتاب وصف افريقيا

يظهر أن مؤلفات الحسن صاحبنا عديدة، ومن سوء حظنا لم تتصل إلا بكتاب أو كتابين منها، والأخرى لا نعرف إلا اسمها، بل ربما ألف مؤلفات قبل أسره أو بعده لا نعرف شيئا عنها مطلقا بل لا نعرف حتى اسمها، ومع ذلك فكتابه الذي بين أيدينا كاف أن يرينا صورة صحيحة عن هذا الرجل وعقليته ومواهبه، هذا الكتاب يسميه « وصف افريقيا » وليس هذا الكتاب بالرحلة الوصفية، ولكنه كتاب عملي له وصف العلم ودقة العلم في سائر صفحاته. تناول كثيرا من المسائل، وأجاد في البحث والتحليل وخلد مؤلفا له قيمته الكبرى في عالم الجغرافية والتاريخ مدى الأجيال، وكان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب قبل أن نتصل بالغرب.

والغموض الذي يشمل حياة صاحبنا يشمل حتى مؤلفاته، بل حتى كتابه هذا الذي بين أيدينا والذي ترجم إلى أهم اللغات الأوربية، وله المكانة السامية بين مؤلفات المكاتب الأوربية، فإننا لا نعرف بأية لغة كتب ولا أى مصادر اعتمد عليها صاحبنا عند تأليفه ولا الداعي له على تأليفه ولا المدة التي استغرقها في تأليفه إلى غير ذلك من الأسئلة التي تنير لنا السبيل وتزيل شيئا من الإبهام؛ وغاية ما نعلم أن هذا الكتاب صدرت طبعته باللغة الإيطالية في سنة 1530 في مجموعة للإيطالي Romisio خاصة بالأسفار البرية والبحرية، وترجم الكتاب بعد إلى اللغة اللاتينية ولم تأت سنة 1556 حتى ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وبعد ذلك ترجم إلى كثير من اللغات الأوربية. أما أصله العربي - إن كان له أصل عربي - فقد ضاع ولم يعرف منه ولو سطر. وغاية ما يمكننا أن نستنتج من هذه المسألة تأييد الفكرة التي ذهب إليها المستشرق مسينيون هى أن الحسن جمع خلال أسفاره العديدة مذكرات كتبها بلسانه العربي ثم وضعها في صفة كتاب مضيفا إليها معلوماته التي

حفظتها له ذاكرته التي لا ريب أنها كانت ممتازة في الإدراك والحفظ. فعند تأليفه لهذا الكتاب أو غيره في إيطاليا لم يكن له من المصادر العربية شيء، بل اعتمد على مشاهداته وتجارب أسفاره، فكان لكتابه قيمة ممتازة حيث لم يكن مؤلفه ممن يعتمد على غيرهم من المؤلفين؛ أما الداعي له على تأليف هذا الكتاب فلعله هو البابا ليون العاشر نظرا للصلة التي كانت متينة والمودة العظيمة بينهما، فلا ريب أن شغف هذا البابا بالعلم دعاه أن يطلب من رفيقه المغربي أن يحدثه عن أحوال بلاده ومشاهداته، فأفاض صاحبنا في الحديث والوصف إفاضة دعت البابا أن يطلب منه تأليف كتاب يضم هذه المعلومات يحتفظ بها في خزانته، فلبى الطلب وألف هذا الكتاب، على أن ليون المغربي لا يتحدث إلينا بشيء من هذا مطلقا وإنما هو ظن وفرض لا أكثر ولا أقل.

عندما درس المستشرق الشهير مسينيون هذا الكتاب لم يتمالك من أن يقول إن هذا الكتاب بتبويبه وترتيبه مؤلف للأوربيين،

فقسم ليون المغربي كتابه إلى تسعة أقسام:

الأول في معلومات عامة عن الجغرافية، ومن عناوين هذا القسم مثلا: أصل كلمة افريقيا سكان افريقيا، وتعريف هذا الإسم ، أصول الإفريقيين، العرب الساكنون في مدن افريقيا وهكذا تابع بحثه بغاية الدقة والتحليل؛

وفي الأقسام السبعة تكلم عن كل ناحية من نواحي المغرب بتفصيل وشرح تامين، مبتدئا بالمدن التي في تلك الناحية ثم بالجبال؛

وفي القسم التاسع تكلم عن المحصولات الأرضية وعن الأنهار والبحار.

ومن العجيب أنه أول من قسم المغرب على أربعة أقسام:

1 - البلاد البربرية أى البلاد الواقعة على شمال سلسلة جبال الأطلس، وهى المغرب والجزائر وةونس؛

2 - بلاد النخيل أو الجريد الواقعة على جنوب الأطلس؛

3 - بلاد ليبيا وهى الصحراء؛

4 - بلاد السودان (بلاد كناوة) .

وهذا التقسيم لا زال يستعمل إلى اليوم في جغرافية القطر المغربي عموما، وهو الذي استنبطه مما يدل على دقة ملاحظته ودراسته العملية؛ والإنسان عندما يتابع ما في الكتاب يخيل إليه أنه ألف في العصر هذا، إذ يرى فيها معلومات وافية عن نواحي مختلفة من الحياة لم يكن ليتصور أن العالم القديم كان يهتم بتلك النواحي ويستطيع أن يستنتج تلك الاستنتاجات.

فهو إذا ذكر جسرا نصبه يعقوب المنصور لم يغفل أن يعدد لنا عدد أقواسه، ويذكر في كل جهة ما يوجد من معادن وأتربة، ويشير إلى عمر الإنسان بالمغرب ويثبت أنه يتراوح بين 65 و 70 وفي الأطلس حيث الهواء النقى بين 80 و مائة سنة، وهذا يؤيده الإحصاء الحديث تأييدا تاما.

ويجره الكلام عن الهواء إلى الأمراض التي يصاب بها المغاربة فيعددها ويذكر مصدرها وأسبابها.

ثم يتطرق إلى الحياة الاجتماعية فيدرك ما للهواء من التأثير في الأخلاق التي يصفها بمنتهى الصراحة حيث يزعم أن الشعب البربري ماهر في التجارة، لا يثبت على حال، متمسك بالدين، كثير الجدل، ثم يخصص صفحات عن الملابس التي كانت تسود في عصره وأنواعها حسب مختلف الأوقات والمناسبات، ثم فصل الأطعمة التي يتناولها أبناء وطنه، وهكذا كان دقيقا في الناحية الاجتماعية كما في غيره.

وللناحية الإدارية أيضا حظ في كتابه إذ عدد المحاكم في كل ناحية، وتحدث عن تقاسيم المغرب السياسية، وعن الجهات التي كان بنو الوطاس يسيطرون عليها، وعن المدن المستقلة في إدارتها. والقبائل لم تكن تعترف بإدارة وملك الوطاسيين نظرا لضعفهم واضطراب أحوالهم.

وقد أفاض أيضا افاضة عجيبة في الطرق التي بالمغرب وأعطى عنها تفصيلا دقيقا إذ عدد كل مركز أو مدينة وما يتفرع عنه من طرق بتفصيل وإيضاح.

والخلاصة أن ليون المغربي لم يترك ناحية إلا تحدث عنها بإسهاب ودقة غريبين دلتا على مقدار علمه وسعة نظره، ولعله إذا استرسلنا أن نعدد ونوضح ما يحتوي عليه الكتاب لضاق بنا المقام وخرجنا عن حدود الكتابة عن المؤلف إلى استعراض تفاصيله، فما ذكرنا سيعطي صورة عن مجهود الرجل، ويستطيع المرء أن يقيس عنها صورا عدة عما في الكتاب من أبحاث هى جديرة بالظهور والبروز في وسطنا، فيطلع أبناء الجيل الحاضر على ما خطه عالم من علمائهم في عصر من عصورهم المتحضرة.

وقد ذكرت آنفا أن مؤلف الحسن هذا كان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب، وقد أتى المستشرق مسينيون على ذكر أشهر الأشخاص الذين كان مؤلف ليون مصدرهم في أبحاثهم عن بلاد افريقيا عموما والمغرب خصوصا فإذا هم يزيدون عن الثلاثين كان أولهم في سنة ... من القرن السادس عشر وأخيرهم في سنة 1853 ، ولكى تذكر حقيقة أهمية المؤلف في الغرب لتفتح أى كتاب عن المغرب ألف في الغرب فإنك لا ريب ستجد اسم صاحبنا في صدر قائمة المصادر التي اعتمد عليها صاحب الكتاب في بحثه.

مؤلفاته الأخرى

فمن سوء حظ الثقافة والعلم إذن ألا نتصل بمؤلف آخر لهذا الرجل الفذ ولا نعرف من مؤلفاته الأخرى إلا أسماءها، فلو أتيح لنا أن نجد تلك المؤلفات ونهتم بدرسها لاتصلنا اتصالا قويا بحياة العصر المريني العلمية والفكرية، فمن يدري ففي بعض الخزائن المغربية مخطوطات من هذا القبيل يكون إبرازها بواسطة المطبعة حدثا في الماضي يحدث انقلابا في معلوماتنا عن الماضي وتغييرا في آرائنا نحو ذلك الماضي المجيد.

فمؤلفات الحسن لم نعرف - كما ذكرت - إلا أسماءها منها قاموس عربي عبراني لاتيني توجد منه نسخة بالاسكوريال في اسبانيا وكتاب في النحو وآخر في البلاغة وآخر باللاتينية في تراجم ثلاثين من أشهر رجال الإسلام.

وبقى علينا أن نتساءل هل ألف الحسن شيئا قبل أسره وبعد رجوعه إلى تونس، فالظاهر أن كل المؤلفات التي ذكرت آنفا ألفت وهو مقيم في إيطاليا، فليس من المتصور أن عالما ممتازا كصاحبنا يقضي شطرا من عمره في وسطه حيث لغة آبائه وثقافتهم دون أن يؤلف ودون أن يشتغل بالعلم ودراسته، فإذا كان هناك شيء فإننا لا نعرف الآن شيئا عن صاحبنا إلا ومصدرنا الوحيد هو أقوال المؤلفين الغربيين.

كلمة ختامية

لشخصية ليون هذا مقام كبير في الدوائر العلمية الغربية وكثير من المقالات حررت فيه إذ يعتبر شخصا له خدمة جليلة للثقافة والبحث في عصر لم تكن فيه معلومات الإنسان عن هذا العالم إلا معلومات سطحية، إذن فمن العار أن نجهل مثل هذه الشخصية من وسطنا العربي وفيه تدرجت وتثقفت بينما له في الغرب دوى حيث يعتبر ممتازا في معلوماته وطرق بحثه.

ولعل أقل الواجبات التي ينبغي أن نقوم بها نحو رجلنا الممتاز أن يترجم كتابه إلى اللغة التي هى أصله الأول، فنعيد إلى المكتبة المغربية كتابا من كتبها الضائعة، ونهيئ للقارئ العربي أن يطلع على كتاب يريه بأحلى صور حياة المغرب منذ أربعة قرون وما كانت تضطرم به من عناصر النور والظلام، وما كانت تموج به من حق وضلال، فهل من شبابنا من يقوم بهذا الواجب؟